المحاضرة الأولى: مدخل إلى علم النفس الإجرام (إبراز العلاقة الانطلاقة من اعتبار الجريمة إلى غاية إبراز الاهتمام بالمجرم كشخص)

تمهيد:

يعد السلوك الانحرافي والإجرامي من أخطر الظواهر الاجتماعية المرضية التي تهدد المجتمعات والكيان البشري ككل في أمنه واستقراره، لأنها ظاهرة متميزة عن الظواهر الأخرى، فهي من جهة بشرية اجتماعية، وأنها من جهة أخرى مؤذية وضارة، وبديهي أنه لا يتأتى التصدي لمكافحتها والتخفيف من أشرارها وعواقبها و تجفيف منابعها إلا بالدراسة العلمية المتأنية والموضوعية لعوامل ميلادها ولأبعادها الرئيسية وهي: البعد البشري أي أن السلوك الإنساني سلوك بشري صادر عن قوة عاقلة ناشطة وفاعلة في غالب الأحيان، ويتحكم في صدوره وتوجيهه جهاز عصبي ودوافع وأهداف. البعد المكاني: أي أن السلوك البشري يحدث في مكان معين. البعد الزماني: أي أن السلوك البشري يحدث في وقت معين قد يستغرق وقتا طويلا أو ثواني معدودة. البعد الاجتماعي:أي أن السلوك البشري يتأثر بالقيم الأخلاقية و القواعد القانونية وبالعادات والتقاليد المعمول بها في المجتمع.

وانطلاقا من الكون الجريمة حتمية في حياة المجتمعات و احتمالية في حياة الأفراد ، و نظرا للخطورة التي تتسم بها هذه الظاهرة، أدى تقاطع الجهود للعديد من العلماء في المجالات: الإجرامية، القانونية، العقابية، الاجتماعية، الانثروبولوجية، النفسية، العصبية والطبية..، إلى تكوين أرضية علمية متعددة الاختصاصات، تبحث في حجمها وعوامل ميلادها والتخفيف من أثارها المدمرة.

و يُعدّ علم النفس الإجرامي(الجنائي) من العلوم النفسية التي تهدف إلى دراسة السلوك الإجرامي من خلال تحليل العوامل النفسية الكامنة وراءه، وفهم شخصية المجرم ودوافعه وظروفه المختلفة التي عاشها و يعيشها. وقد مرّ العلم الإجرام بتطور فكري مهم، انتقل فيه من التركيز على الجريمة كفعل قانوني مجرد، إلى الاهتمام بالمجرم كشخص باعتباره محورًا أساسيًا في تفسير الظاهرة الإجرامية.

و يمكن اختصار تطور دراسة و فهم السلوك الإجرامي في المراحل الآتية:

*ففي العصور القديمة ساد الاعتقاد بأن أرواحا شريرة تتقمص أجساد بعض الأفراد، وهي التي تدفعهم إلى ارتكاب الجريمة، وكان علاج ذلك هو الأذى الجسدي القاسي كحرق الجاني أو صلبه. أما لدى فلاسفة أثينا القديمة فقد نالت الجريمة حظها من التأمل والتفكير، فعزا ابيوقراط وسقراط وأفلاطون وأرسطو الجريمة إلى نفس فاسدة في المجرم أساسها عيوب خلقية جسدية فيه، ولقد فرق أفلاطون بين صنفين من المجرمين، صنف يمكن تقويمه وإصلاحه، وصنف آخر يجب التخلص منه لتعذر إصلاحه، إلا أن أرسطو كان أكثر سابقيه ومعاصريه بحثا لطبيعة السلوك الإنساني، حيث حاول هذا الفيلسوف في كتابه

"رسالة الروح" كشف العلاقة بين سلوك الإنسان وبين بعض ما يمكن ملاحظته من سمات الجسم كلون البشرة ونوع الشعر وطول القامة (عبد الرحمان محمد أبو توتة، 1999،ص16).

* وبقي هذا الطرح الفلسفي سائدا حتى العصور الوسطى أين طرحت أفكار نظرية أخرى مؤداها أنه يمكن الوقوف على طباع الشخص من فحص خطوط يديه ورجليه و تقاطيب وجهه، ثم تلت هذه النظرية أخرى تربط السلوك الإجرامي بالأجرام وتعلق مصير المجرم بالكوكب المتسلط عليه.

* وفي سنة 1586 وضع ديلابورتا Della porta مؤلفا في علم الإجرام يربط الجريمة بطباع فردية تكشف عنها عيوب خلفية ظاهرة في الوجه –في العينين والجبهة والأنف–،وأيده في نظريته فلاسفة طبيعيون مثل داروين Darwin (عبد الرحمان محمد أبو توتة، 1999، 17). كما قام الطبيب الفرنسي جال Gall (1758–1822) بوضع أسس علم الجمجمة، وحاول أن يحدد العلاقات بين النتوءات المخية وطابع الإنسان(عبد الرحمان محمد أبو توتة، 1999، ص17).

* وفي سنة 1833 أصدر العالم الفرنسي جيري Gyerry (1802–1866) كتابا بعنوان "بحث في التوازن الأدبي" عمد فيه إلى دراسة إحصائيات الجرائم في فرنسا وأشار من خلالها إلى أثر بعض العوامل الفردية والاجتماعية على الجريمة كالجنس والسن والحرفة ومستوى الثقافة، كما قام بمقارنة إحصاءات الجريمة في فرنسا بمثيلاتها في انجلترا (محمد شلال العاني،علي حسن طوالبة، 1998، ص14). وفي سنة 1874 نادي طبيب الأمراض العقلية الايطالي جسبار فارجيلو Gaspare Virgilio بالطبيعة المرضية للجريمة والشبه بينهما وبين الجنون.وفي القرن التاسع عشر ارجع لافاتيه Lavater وجال Gall الجريمة إلى ضعف خلقي سببه خلل في النمو الطبيعي لأجزاء الدماغ والمخ.

* وحسب التراث التاريخي لعلم الإجرام فإن هذا العلم لم يزدهر إلا بفضل مجهودات العلماء والأطباء خاصة الايطاليين، واستعانتهم في هذه الجهود بكل الأساليب العلمية التي تستخدم في فحص الشخص بصفة عامة مجرما كان أو غير مجرم، بالإضافة إلى تجارب عديدة تمت في مؤسسات الوقاية والعقاب بروما بإيطاليا.

* ويؤكد البعض أن المجرم لم تبدأ دراسته بالأسلوب العلمي الصحيح إلا سنة 1871 يفضل المحاولة التي قام بها الطبيب الايطالي لومبروزو سيزار Lombroso Cesare (1836–1909) الذي كان أستاذا للطب الشرعي والعصبي بجامعة pavia، حيث صدر له كتاب بعنوان "الإنسان المجرم" (1875–1876)، وسمحت له خدمته كطبيب في الجيش الايطالي بملاحظة بعض الصفات في الجنود الأشرار لم تكن موجودة في الجنود العاديين، كما اتضح له من تشريح جثث كثيرين من المجرمين وجود عيوب في تكوينهم الجسماني، كما فحص جماجم الكثيرين منهم، فلاحظ شذوذا في الأسنان وحجم الجبهة. وفي بحوث لاحقة تعدى لومبروزو العيوب الخلقية الظاهرة للمجرمين إلى وظائف أعضائهم الداخلية وإلى

أحوالهم النفسية، وقرر بأن هناك علاقة بين إجرامهم وبين خلل عضوي وعيب نفساني فيهم (رمسيس بهنامز، 1970، ص26).

وفكرة لومبروزو أن المجرم إنسان يولد مجرما بحكم عوامل وراثية لقيت العديد من الانتقادات من طرف العلماء والباحثين في السلوك الإنساني.

* وفي عام 1880 نادي العالم Raffaele Garofalo (1851–1934) وهو من تلاميذ لومبروزو بنظرية جديدة تفيد بأن المجرم ليس خلقة جسمية شاذة وإنما نفس شاذة، ونقص وتخلف الورع فيها يكون مصدرا لجرائم الدم، بينما يكون نقص الأمانة مصدرا لجرائم المال، وهذه الأفكار وغيرها مهدت إلى ظهور المدرسة الإيطالية الحديثة في علم الإجرام والقانون الجنائي، وهي المدرسة الوضعية التي يتزعمها Enrico Ferri (1856–1929)، والتي تأثرت بأفكارها العديد من التشريعات الجنائية في العالم.

* وفي كتابه الشهير "علم الاجتماع الإجرامي" الذي أظهره سنة 1881 يرجع انريكو فيري الجريمة إلى ثلاثة أنواع من العوامل: عامل طبيعي وجغرافي، وعامل شخصي وعضوي، وعامل اجتماعي، وبالتالي فهو يعرف الجريمة على أنها وليدة تجاوب بين عوامل شخصية داخلية في المجرم وبين عوامل مادية خارجية في البيئة الطبيعية الجغرافية وعوامل روحية في العلاقات الاجتماعية، وهذا التفاعل تختلف نسبة العوامل الثلاثة فيه باختلاف الجرائم والمجرمين.

* وفي سنة 1889 قدم العالم الاجتماع كولاياني فكرة مخالفة لانريكو ليؤكد من خلالها أن العامل الاجتماعي هو السبب الوحيد للجريمة، ويرى أن الاستعداد النفسي للشخص للجريمة ليس إلا وليد ظروف اجتماعية عاشها المجرم.

* وفي عام 1945 وضع الأستاذ الأمريكي دونالد تافت Taft كتاب في علم الإجرام ليؤكد من جهته أن المجرم من صنع وإنتاج المجتمع، وأن الوراثة يكاد لا يكون لها أي نصيب في حدوث الجريمة.

وفي نفس السنة طرح Benegno Di tullio أستاذ علم طباع المجرم نظرية جديدة هي نظرية التكوين الإجرامي أو (الاستعداد السابق للإجرام)، ومؤدى هذه النظرية أنه رغم كون الجريمة بصفة عامة نتيجة تفاعل بين نفسية الإنسان كعامل داخلي وبين الظروف التي يقابلها في العالم الخارجي، إلا أن الاختبار والتجربة قد دلا على أن هناك أفرادا لديهم استعداد أو ميل إلى الجريمة لا يتوافر لدى الآخرين، بدليل أن الظروف الخارجية التي تدفع البعض إلى الإجرام لا تحدث نفس الأثر بالنسبة للأشخاص العاديين.

و يمكن اختزال هذه المحطات التاريخية في ما يلي:

***النظرة القانونية التقليدية (عصر الفقه الكلاسيكي)**

في المرحلة الأولى من تطور دراسة الجريمة، كانت النظرة السائدة تتسم بالقانونية الصارمة، حيث كانت الجريمة تُفهم كفعل مخالف للقانون يتطلب معاقبة مرتكبه بغض النظر عن الظروف النفسية أو الاجتماعية المحيطة به. كانت أبرز ملامح هذا الاتجاه:

– الإنسان ككائن عاقل: افترض الفقهاء الكلاسيكيون أن الإنسان يمتلك حرية الإرادة والقدرة على اتخاذ قرارات عقلانية بناءً على حسابات للمنفعة والمخاطر.

– الجريمة فعل إرادي ناتج عن اختيار عقلاني.

– الردع كهدف رئيسي: كان الهدف من العقوبة هو ردع الفاعلين المحتملين، بحيث تُعتبر العقوبة مناسبة لمخالفات القانون ولا تأخذ في الاعتبار الظروف الداخلية أو الاجتماعية للمجرم.

و من أبرز العلماء في هذا المجال:

– سيزار بيكاريا (Cesare Beccaria): يعتبر بيكاريا من رواد الفكر الكلاسيكي في دراسة الجريمة، حيث أكد في كتابه *"علاج الجرائم والعقوبات"* أن الجريمة هي نتيجة لاختيار عقلاني من الشخص، وأن العقوبات يجب أن تكون سريعة وملائمة لضمان الردع.

–جيريمي بنتام (Jeremy Bentham): طور بنتام فكرة "المنفعة العظمى" في الأخلاق، مؤكدًا أن الإنسان يسعى لتحقيق أكبر قدر من اللذة وأقل قدر من الألم، مما يعني أن الجريمة هي نتيجة لقرار عقلاني فردي.

***النظرة الوضعية (القرن 19)**

مع نهاية القرن التاسع عشر، ظهر الاتجاه الوضعي الذي شكّل نقطة تحوّل أساسية في دراسة الجريمة و كان اهتمامه بدراسة العوامل البيولوجية والوراثية المؤثرة في السلوك الإجرامي، وذلك في محاولة لفهم المجرم بعيدًا عن تصوره ككائن عقلاني بالكامل. حيث ركز المفكرون في هذا العصر على أن الجريمة نتيجة لعوامل داخلية قد تكون بيولوجية، نفسية، أو خارجية اجتماعية، وأن المجرم ليس دائمًا مسؤولا عن أفعاله بشكل كامل. و من أبرز العلماء في هذا المجال:

– سيزار لومبروزو (Cesare Lombroso): يُعتبر لومبروزو مؤسس النظرية الوضعيّة، حيث طرح فكرة «المجرم بالفطرة»، والتي تقول بأن المجرم يحمل صفات (طفرات) جسمية وبيولوجية خاصة تجعله

مختلفًا عن غيره من الناس. طبقًا لهذه الفكرة، كانت الجريمة نتاجًا لسمات بيولوجية موروثة.و تعد أبحاثة من الدراسات العلمية الأولى حول تفسير الجريمة.

حيث اعتبر أن:

*المجرم يختلف عن الشخص العادي

*الجريمة نتيجة عوامل بيولوجية بالاساس و نفسية

*هناك ما يُسمّى بـ 'المجرم بالفطرة'

– إدوارد جارفيلد (Edward Garfield): أكد على دور البيئة في تشكيل الشخصية الإجرامية، محاولًا ربط السلوك الإجرامي بعوامل اجتماعية، مثل العنف الأسري والفقر.

ورغم الانتقادات الموجهة لهذا الطرح، إلا أنه أسهم في **نقل الاهتمام من الجريمة إلى شخصية المجرم.

النظرة النفسية (القرن 20)

بدأ علم النفس يبرز كأداة رئيسية في دراسة الجريمة، حيث لم يعد يُنظر إليها كفعل فقط، بل كنتيجة لاضطرابات أو مشاكل نفسية. و في هذا السياق، تم الاهتمام بالدوافع المجرم النفسية، وارتبطت الجريمة بالعوامل النفسية الداخلية التي قد تتشكل نتيجة لتجارب فردية وصراعات داخلية.

أبرز النظريات النفسية في هذا السياق:

* نظرية التحليل النفسي (سيغموند فرويد Sigmund Freud) الذي أكد على أن السلوك الإجرامي يمكن تفسيره من خلال الصراعات النفسية اللاشعورية. طبقًا لهذه النظرية، فإن المجرم قد يعاني من اضطرابات نفسية ناتجة عن صراع بين الأجزاء المختلفة للذات (الهو، الأنا، والأنا الأعلى).

*نظرية التعلم الاجتماعي (ألبرت باندورا Albert Bandura)): حيث يرى باندورا أن السلوك الإجرامي ليس فطريًا، بل يتعلمه الفرد من خلال محاكاة البيئة الاجتماعية والنماذج التي يتعرض لها. فالجريمة هنا نتاج **التعلم من المحيط الاجتماعي، خاصة في حالات التفكك الأسري أو بيئات العنف.

*نظرية الاندفاع (Impulsivity Theory)و مؤسسها: هنري موراي (Henry Murray)

هذه النظرية تركز على الاندفاعات أو السلوكيات المتهورة التي تنشأ نتيجة لتدني مستوى التحكم في الذات أو ضعف القدرة على ضبط النفس. فالأفراد الذين يعانون من مشاكل في التحكم في اندفاعاتهم

و نزواتهم قد يكونون أكثر عرضة للانخراط في السلوك الإجرامي. لانهم يتصرفون بناءً على الرغبات الفورية دون النظر إلى العواقب، مما قد يؤدي إلى سلوكيات إجرامية.

*نظرية الصدمة النفسية (Trauma Theory) و التي ينطلق مؤسسها جون برايس (John Price)

من فكرة أساسية و هي أن الأفراد الذين تعرضوا لصدمة نفسية أو لتجارب مؤلمة في طفولتهم، مثل التعرض للعنف أو العقاب أو الإهمال لأسر قد يطورون سلوكيات إجرامية نتيجة لتلك التجارب.كرد فعل على تجاربهم المؤلمة التي لم يتم معالجتها بشكل صحي.

***النظرة الاجتماعية – دور البيئة في تشكيل السلوك الإجرامي-**

في النصف الثاني من القرن العشرين، ظهر تركيز كبير على العوامل الاجتماعية والثقافية في تفسير السلوك الإجرامي، حيث تم النظر إلى الجريمة على أنها ظاهرة اجتماعية وليست فردية. ارتبطت الجريمة بتأثيرات البيئة الاجتماعية مثل الفقر، العنف الأسري، والتمييز الاجتماعي.

أبرز النظريات الاجتماعية:

*نظرية التكامل الاجتماعي (إميل دوركايم): الذي اعتبر أن الجريمة قد تكون نتيجة لتفكك القيم والتقاليد الاجتماعية. ورغم أن الجريمة تُعتبر انتهاكًا للقيم الاجتماعية، إلا أنها قد تكون مفيدة للمجتمع في بعض الأحيان، حيث تساعد في إعادة تعريف الحدود الاجتماعية.

*نظرية العجز الاجتماعي (روبرت ميرتون):و يرى أن الجريمة تنشأ عندما يشعر الأفراد بالعجز عن تحقيق أهداف المجتمع بواسطة الوسائل المقبولة اجتماعيًا. وفقًا لهذه النظرية، قد يؤدي الفقر والتهميش إلى اللجوء إلى الجريمة كوسيلة لتحقيق الأهداف.

و في القرن الواحد و العشرين

*النظرة النفسية الاجتماعية الحديثة

في القرن الواحد والعشرين، تزايد الاهتمام بتكامل العوامل النفسية والاجتماعية في تفسير الجريمة. هذا التوجه يعترف بأن الجريمة ليست نتيجة عامل واحد، بل هي نتاج تفاعل معقد بين العوامل النفسية، البيئية، والاجتماعية.

أبرز النظريات في هذا المجال:

* نظرية الصراع الاجتماعي (Social Conflict Theory) المؤسس هو C. Wright Mills : تؤكد هذه النظرية أن الجريمة هي نتيجة صراع اجتماعي بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، حيث تهيمن الطبقات العليا على الموارد والفرص بينما تُستغل الطبقات الدنيا. الجريمة قد تكون وسيلة احتجاج ضد الظلم الاجتماعي، إذ يلجأ الأفراد إلى ارتكاب الجرائم بسبب الحرمان الاجتماعي والاقتصادي.

* **نظرية تحديد الهوية (Labeling Theory) المؤسس هو Hugo Biedogo** :
تركز هذه النظرية على تأثير التصنيفات الاجتماعية على الأفراد. عندما يُصنف الشخص و يوصم كمجرم، فإنه قد يتبنى هذه الهوية الجديدة ويبدأ في تكرار السلوك الإجرامي .تصنيف الفرد كمجرم يؤدي إلى تعزيز السلوك الإجرامي وتثبيت الهوية الاجتماعية التي يتم إلحاقها به من المجتمع.

***إسهامات** العلوم النمائية و العصبية في تفسير الجريمة تمثل إضافة مهمة إلى فهم الظاهرة الإجرامية، إذ قامت بتسليط الضوء على تأثير الدماغ والعمليات العصبية على السلوك الإجرامي. في السنوات الأخيرة، أين اهتم علماء الأعصاب في دراسة دور الدماغ والنظام العصبي **في** تفسير السلوك الإجرامي، والبحث **عن** العوامل البيولوجية التي قد تساهم في الانحرافات السلوكية.

خلاصة

يمكن القول إن تطور دراسة الجريمة كان نتيجة للتفاعلات بين مختلف **النظريات القانونية، البيولوجية، النفسية، والاجتماعية و النمائية و العصبية، حيث بدأ الفهم التقليدي الذي كان يركز على الجريمة كفعل خارجي، لينتقل تدريجيًا إلى الفهم المعقد الذي يركز على المجرم كفرد متأثر بعدد من العوامل النفسية والاجتماعية و البيولوجية. هذا التحول يعكس تحولًا من النظرة القانونية البسيطة إلى النظرة النفسية والاجتماعية الأكثر شمولية.